نعمة الماء والحفاظ عليها

الجمعة ٢٠ من صفـــر ١٤٣٦هـ - ١٢ من ديسمبر ٢٠١٤م

أولًا- العناصر:

١- نعمة الماء ومكانتها في القرآن الكريم والسنة.
٢- منهج الإسلام فى الحفاظ على المياه .
٣- حرمة الإسراف في الماء وخطورته.
٤- تلويث الماء عصيان لله وعقوق للوطن.
٥-المسئولية الفردية والجماعية تجاه الحفاظ على الموارد المائية .

ثانيًا- الأدلة:

الأدلة من القرآن الكريم:

١-يقول الله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[الأنبياء: ٣٠].
٢-ويقول تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[النور: ٤٥].
٣-ويقول تعالى: {...وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢].ويقول تعالى: {وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الجاثية: ٥] .
٤-ويقول تعالى: {وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}[النحل: ٦٥] .
٥-ويقول تعالى: { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ}[المؤمنون: ١٨] .
٦-ويقول تعالى: {...وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}[النمل: ٦٠] .
٧-ويقول تعالى: { أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ}[الواقعة: ٦٨ - ٧٠] .

الأدلة من السنة والآثار:

١-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ طَابَتْ نَفْسِي وَقَرَّتْ عَيْنِي ، فَأَنْبِئْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ : «كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ» قَالَ : قُلْتُ : أَنْبِئْنِي عَنْ أَمْرٍ إِذَا أَخَذْتُ بِهِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ : «أَفْشِ السَّلاَمَ، وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ، وَصِلِ الأَرْحَامَ، وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ»[مسند الإمام أحمد، والمستدرك للحاكم وصححه الذهبي].

٢-وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ (رضي الله عنهم) قَالَ : جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) فَسَأَلَهُ عَنِ الْوُضُوءِ، فَأَرَاهُ ثَلاَثًا ثَلاَثًا ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا الْوُضُوءُ ، فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا فَقَدْ أَسَاءَ ، أَوْ تَعَدَّى ، أَوْ ظَلَمَ»[سنن ابن ماجه] .

٣-وعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَتَوَضَّأُ بِالْمُدِّ وَيَغْتَسِلُ بِالصَّاعِ إِلَى خَمْسَةِ أَمْدَادٍ»[متفق عليه].

٤-وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (رضي الله عنهما) هُوَ وَأَبُوهُ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ فَسَأَلُوهُ عَنِ الْغُسْلِ فَقَالَ: «يَكْفِيكَ صَاعٌ فَقَالَ رَجُلٌ مَا يَكْفِينِي، فَقَالَ جَابِرٌ: كَانَ يَكْفِي مَنْ هُوَ أَوْفَى مِنْكَ شَعَرًا وَخَيْرٌ مِنْكَ ثُمَّ أَمَّنَا فِي ثَوْبٍ» [صحيح البخاري].

٥-وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّم) مَرَّ بِسَعْدٍ – وهو ابن وقاص (رضي الله عنه)- وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَقَالَ: «مَا هَذَا السَّرَفُ ؟ فَقَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ»[سنن ابن ماجة].

٦-وعَنْ جَابِرٍ (رضي الله عنه)عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) "أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُبَالَ فِى الْمَاءِ الرَّاكِدِ"[صحيح مسلم].

٧-و عَنْ أَبِى نَعَامَةَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُغَفَّلٍ (رضي الله عنه) سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا. فَقَالَ: أَىْ بُنَىَّ سَلِ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَتَعَوَّذْ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ فِى هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِى الطُّهُورِ وَالدُّعَاءِ »

[سنن أبي داود] .

٨-وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) قَضَى أَنْ لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ. [سنن ابن ماجة].

٩-وعن هِلاَلِ بْنِ يَسَافٍ وهو تابعي جليل رحمه الله- أنه قال: "كَانَ يُقَالُ فِى كُلِّ شَىْءٍ إِسْرَافٌ حَتَّى فِى الطَّهُورِ وَإِنْ كَانَ عَلَى شَاطِئِ النَّهَرِ"[السنن الكبرى للبيهقي].

ثالثًا- الموضـوع:

الماء نعمة كبرى، ومنة عظمى، عليه تقوم الحياة، وهو أساس الحضارة والرقي وعماد الاقتصاد، ومن أهم مصادر الرخاء وأصل النماء، وسبب البقاء، فالماء أغلى ما تمتلك الإنسانية، إنه الرزق النازل من السماء، يقول الله تعالى: {...وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢]، ويقول تعالى: {... وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الجاثية: ٥]، فتارة يسمي النازل من السماء ماءً وتارة يسميه رزقًا ليعلم العباد أن هذا الماء النازل من السماء يحمل الخير والبركة والنماء والبهجة، فالأرض ميتة والماء حياتها، يقول الله تعالى: {وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}[النحل: ٦٥]، والأرض هامدة يابسة مقحلة حتى إذا نزل عليها الماء تحركت بالنبات وصارت مبهجة، يقول الله تعالى: {...وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}[الحج: ٥]، فالماء إذًا بهجة الحياة: {...وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}[النمل: ٦٠]، والماء اخضرار الأرض وجمالها: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [الحج: ٦٣].

ورؤية الماء ترطب النفوس، وهو بإذن الله حياة الروح والبدن: {...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[الأنبياء: ٣٠]، ويقول تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [النور: ٤٥]، و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ طَابَتْ نَفْسِي وَقَرَّتْ عَيْنِي ، فَأَنْبِئْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ: «كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ»، فالماء هو العنصر الأهم في حياة الأحياء، فالخلايا الإنسانية والحيوانية والنباتية تحتوي على كميات كبيرة من الماء ، وإن نقصان هذه الكمية إلى حدود حرجة يعني الجفاف والموت، فالماء يشكل ٩٠٪ من وزن بعض الكائنات الحية، أما الإنسان فيشكل الماء حوالي ٧١٪ من وزنه، وهي تقريبًا نفس نسبة الماء في الكرة الأرضية، فسبحان من هذا خلقه ، إنه الماء جعله الله تعالى وسيلة لحسن الثواب في الدنيا فقال: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا } [الجن: ١٦]، كما جعله وسيلة عقاب على المكذبين والمذنبين فقال: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ } [القمر: ١١، ١٢]، بل جعله المولى جل وعلا من أعظم نعيم أهل الجنة فقال: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...} [محمد: ١٥].

ومما يدل على العناية الإلهية بالماء أنْ ذَكرَهُ الله تعالى في القرآن الكريم في مواضع كثيرة بلغت ثلاثة وستين موضعًا، فهل بعد هذا دليل على أهميته ووجوب الحفاظ عليه؟!

ولما كان للماء هذه المكانة التي تساوي الحياة حثَّ الإسلام على الحفاظ عليه وترشيد استهلاكه، ولذا حرص سلفنا الصالح على الماء حرصا شديدا، كما حرصوا على بقائه نقيًا طاهرا حتى يتمكنوا من شربه والتطهر به في صلاتهم وسائر عباداتهم التي تحتاج إلى طهارة، كما حرصوا على توفيره للجميع فلا يحرم منه أحد، بل إن الإسلام اعتبر الماء ثروة يمكن التصدق بها كالمال، وقد حث الرسول (صلى الله عليه وسلم) على ذلك كما فعل في بئر رومة الذي كان تحت يد يهودي وكان يمنع المسلمين من مائه، فَعَنْ عُثْمَانَ (رضي الله عنه) قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَكُونُ دَلْوُهُ فِيهَا كَدِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ» فَاشْتَرَاهَا عُثْمَانُ (رَضِيَ اللهُ)[صحيح البخاري].

ومن الحفاظ على الماء الاعتدال في استعماله وعدم الإسراف فيه، فالإسراف حرام حرمه الله تعالى في كتابه حيث يقول: {...وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[الأعراف: ٣١]، فالمسرفون يكرههم الله تعالى فهم عنه مُبعدون، ومن نوره وهدايته محرومون.

إن أُخُوَّةً تجمعُ بين المبذر وبين الشيطان لهي أشدُ دليل على قُبحِ الإسراف والتبذير، يقول تعالى: {...وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}[الإسراء: ٢٦، ٢٧]، فإذا كان الإسراف حرامًا على العموم فكيف به في نعمة عظيمة كنعمة الماء بها تكون حياة كل حيّ؟! ولكننا نتساءل: هل نتعامل مع الماء فعلًا على أنه نعمة؟! هل نقدر لهذه النعمة العظيمة قدرها؟! الماء الذي نهدره في الحقول، وفي البيوت، وفي المدارس وفي الشوارع ولا ندري أن الله تعالى سيحاسبنا على كل نقطة منه نهدرها.

إن النبي (صلى الله عليه وسلم) شدد في النهي عن الإسراف في الماء واعتبره تعديًا وظلمًا، فهذا الصحابي الذي جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ليتعلم منه الوضوء فأراه الوضوء ثلاثًا ثلاثًا ثم قال: «هَذَا الْوُضُوءُ ، فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا فَقَدْ أَسَاءَ ، أَوْ تَعَدَّى ، أَوْ ظَلَمَ»[سنن ابن ماجة]، فجعل الزيادة على قدر الحاجة

تعديًا وظلمًا، وإساءة في استعمال النعم التي أنعم الله تعالى بها علينا، ويقول رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) أيضًا: «إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ وَالدُّعَاءِ».

إننا نخالف سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ذلك مخالفة كبيرة، فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يتوضأ بمُدّ، ويغتسل بصاع، فعن أنس (رضي الله عنه) قال: "كَانَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) يَغْسِلُ - أَوْ كَانَ يَغْتَسِلُ - بِالصَّاعِ إِلَى خَمْسَةِ أَمْدَادٍ وَيَتَوَضَّأُ بِالْمُدِّ "، [والصاع أربعة أمداد والمُد ملء كفي الرجل المتوسط] وكَانَ عند جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (رضي الله عنهما) قَوْمٌ فَسَأَلُوهُ عَنِ الْغُسْلِ فَقَالَ:"يَكْفِيكَ صَاعٌ، فَقَالَ رَجُلٌ مَا يَكْفِينِي، فَقَالَ جَابِرٌ: كَانَ يَكْفِي مَنْ هُوَ أَوْفَى مِنْكَ شَعَرًا وَخَيْرٌ مِنْكَ". وإنما كان هذا القدر القليل يكفي النبي (صلى الله عليه وسلم) لوضوئه أو اغتساله لشدة حرصه على الماء ، أما نحن فإن ذلك لا يكفي أحدنا لغسل يديه فقط، يا لنا من مسرفين !!! يجب علينا أن نقتدي برسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الحرص على هذه النعمة العظيمة فلا نضيع منها ما يصلح لاستخدامٍ – أيّ استخدام– فما لا يصلح للشرب قد يصلح للغسل، ومالا يصلح للغسل قد يصلح لإزالة القاذورات، ولا يفعل ذلك إلا مؤمن يخشى الله تعالى ويدرك أن الماء نعمة كبرى وأنه أغلى من المال، بل أغلى من الدم الذي يجري في العروق، فهلّا حافظنا عليه قبل فوات الأوان؟! ، وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ}[الملك ٣٠]، هذا الماء الذي أنزله الله بقدرته لئن لم نتقِ الله فيه فماذا عسى ربنا أن يفعل بنا؟!{ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ}[الواقعة: ٦٨ – ٧٠].

إن الإسراف في الماء – كما هو الإسراف في غيره– حرام وإن كان الماء كثيرًا، إذ إنه معصية في حد ذاته، فهذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ينهى عن الإسراف في الماء ولو كان في عبادة كالوضوء! ولو كنت على نهرٍ جارٍ! فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) مَرَّ بِسَعْدٍ – وهو ابن وقاص (رضي الله عنه)– وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَقَالَ: «مَا هَذَا السَّرَفُ ؟ فَقَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ»، وكذا ورد عن هِلَالِ بْنِ يَسَافٍ– وهو تابعي جليل رحمه الله– أنه قال: "كَانَ يُقَالُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِسْرَافٌ حَتَّى فِي الطَّهُورِ وَإِنْ كَانَ عَلَى شَاطِئِ النَّهَرِ".

لقد امتنَّ الله تعالى علينا في كتابه الكريم بأن رزقنا ماءً فراتًا – أي صافيًا نقيًا– فقال: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا}[المرسلات: ٢٥ – ٢٧]، فما بال كثير

من الناس يغيرون خلق الله تعالى ويبدلون نعمته ويلوثون ماءً أنزله سبحانه صافيًا؟! إن إلقاء القاذورات والمخلفات في النيل، وفي الترع ومجاري المياه دليل على انعدام التقوى ومراقبة الله تعالى، وكذا إلقاء المواد السامة وكل ما يسبب ضررًا، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): «لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ»، فلا يجوز لمسلم أن يفعل ما يضر غيره، ومثل ذلك – أو أشدّ – ما يفعله بعضهم من إطلاق الصرف الصحي في مجاري المياه الصالحة للاستخدام، كيف يفعلون ذلك وقد نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن البول في الماء، فعَنْ جَابِرٍ (رضي الله عنه)عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الرَّاكِدِ، وما النهي عن ذلك إلا محافظة على صحة الناس إذ إن التبول في الماء من الوسائل التي تنقل العدوى وتؤدي إلى انتشار الأمراض.

إن الذي يلوث الماء بأي شيء ضارّ يأثم بكل كبد فسد بسبب هذا الضرر، ويأثم بكل كُلْيَةٍ فشلت وبكل داء أصيب به إنسان من قِبل هذا الماء الملوث، فكيف نلوث ماءً أنزله الله تعالى طهورًا؟! يقول تعالى:{وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا}[الفرقان: ٤٨].

ومن عناية النبي (صلى الله عليه وسلم) بالحفاظ على الماء أن وجّه المسلمين إلى تغطية أواني الماء لحمايته من الملوثات التي قد تنتقل إليه من الهواء أو الحشرات الناقلة للجراثيم والطفيليات كالصراصير والفئران والنمل والبعوض، فعَنْ جَابِرٍ (رضي الله عنه) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُ قَالَ: «غَطُّوا الإِنَاءَ وَأَوْكُوا السِّقَاءَ وَأَغْلِقُوا الْبَابَ وَأَطْفِئُوا السِّرَاجَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَحُلُّ سِقَاءً وَلاَ يَفْتَحُ بَابًا وَلاَ يَكْشِفُ إِنَاءً فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْرُضَ عَلَى إِنَائِهِ عُودًا وَيَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ فَلْيَفْعَلْ فَإِنَّ الْفُوَيْسِقَةَ تُضْرِمُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ »[صحيح مسلم]، وأوكوا السقاء أي: اربطوا فوهات أواني الماء لحمايتها من التلوث والأوبئة، بل إن حرص النبي (صلى الله عليه وسلم) على طهارة الماء وسلامته بلغت حدا أكبر من ذلك إذ نهى عن النفخ في الشراب ليحميه من نفس شاربه ورائحة فمه كي لا يتلوث ، لأن الشارب الأول قد لا يشرب الماء كله، وقد يحتاج بقيته شخص آخر، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) أَنْ يُتَنَفَّسَ فِى الإِنَاءِ أَوْ يُنْفَخَ فِيهِ.[سنن أبي داود]، وبالمثل نهى (صلى الله عليه وسلم) عن الشرب من فم السقاء مباشرة، وقد ذكروا لذلك سببين: الأول عدم تلوث ماء السقاء برائحة فم الشارب، والثاني حماية الشارب مما قد يكون في السقاء من شيء مختلط بالماء، فإذا وضع الماء في كأس علم ما به.

إننا في ظل ما ينتابنا من خوف على مياه النيل – وهي المصدر المائي الرئيس لنا في مصر– لا خلاص لنا إلا بأن نتقي الله تعالى فيما بين أيدينا من نعمة الماء، إذ إن التقوي هي سبيل النجاة والخلاص من الأزمات، يقول الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}[الطلاق: ٢، ٣]، فلنحافظ على الماء بألا نلوثه ولا نسرف في استعماله حتى يؤمننا الله تعالى فإن الأمر بيد الله تعالى وحده، عن قيس بن الحجاج عمن حدثه قال: " لما فتح عمرو بن عاص مصر أتى أهلها إليه حين دخل شهر بؤونة من أشهر العجم (القبطية) فقالوا: (أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنةً لا يجري إلا بها، فقال لهم وما ذاك؟ قالوا: إذا كان لثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحُلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو إن هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما قبله، فأقاموا بؤونة والنيل لا يجرى لا قليلا ولا كثيرا، وفي رواية: فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى وهو لا يجري حتى هموا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بذلك فكتب إليه عمر إنك قد أصبت بالذي فعلت وإني قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي هذا فألقها في النيل، فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها: " من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر (أما بعد) فان كنت تجري من قِبلك فلا تجرِ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله أن يجريَك، فألقى عمرو البطاقة في النيل فأصبح يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعا في ليلة واحدة"[البداية والنهاية لابن كثير].

لقد وعد الله تعالى من يؤدي حق النعمة ويشكر ربه عليها بالزيادة فقال: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ }[إبراهيم: ٧]، فأعظم وسيلة لضمان الإمدادات الإلهية من الماء هو شكر النعمة والحفاظ عليها.

إن الماء أنزله الله في الأرض بقَدَر وبنظام محكم دقيق، يقول الله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ}[المؤمنون: ١٨]، يقول ابن كثير –رحمه الله– : " وفي إنزاله القَطْر من السماء { بِقَدَرٍ } أي: بحسب الحاجة، لا كثيرًا فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلا فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به... وقوله تعالى : {فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ } أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابليَّة له، تشربه ويتغذى به ما فيها من

الحب والنوى.." [تفسير ابن كثير]، إذًا ففي جوف الأرض خزانات للمياه بقدرة الخلّاق العليم سبحانه، وعندما نزل أحد العلماء إلى منجم للفحم يبلغ عمقه تحت سطح الأرض أكثر من ألف متر اكتشف وجود مياه تعود إلى ملايين السنين! فسبحان القائل: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ...} [عن كتاب: دورة المياه بين العلم والإيمان لعبد الدائم كحيل].

فالماء أنزله الله بقَدَرٍ فهو محدد كالرزق، لكن الله تعالى أراد أن ينزل في بلاد وينتفع به أهل بلاد أخرى تمامًا كالمال في أيدي الأغنياء، يقول سيدنا علي (رضي الله عنه): " إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَى أَغْنِيَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ بِقَدْرِ الَّذِي يَسَعُ فُقَرَاءَهُمْ ، وَلَنْ تُجْهَدَ الْفُقَرَاءُ إِذَا جَاعُوا وَعَرُوا إِلاَّ بِمَا يَصْنَعُ أَغْنِيَاؤُهُمْ ، أَلا وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحَاسِبُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِسَابًا شَدِيدًا ، ثُمَّ يُعَذِّبَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا"[المعجم الصغير للطبراني] .

إن الواجب علينا أن نتقي الله وأن نراعي هذه النعمة التي هي سبب الحياة وليتحمل كل منا مسئوليته أمام الله عز وجل في الحفاظ على ما أولانا من نهر عظيم وماء عذب ، فغيرنا في أمس الحاجة إلى قطرة ماء تروي ظمأه وتنبت كلأه .

ألا فلتكن هَبَّةٌ مجتمعيةٌ تستهدف الحفاظ على الحياة عن طريق الحفاظ على هذه النعمة التي تستمد منها حياة الإنسان، والحيوان، وكل كائن حي بإذن الله تعالى : {...وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى}[طه: ٥٣، ٥٤]